نازك الملائكة

قناديل لمندلي المقتولة

« قصة للعطاش »

انتهى الفلاحون من عملهم في عزّ الصباح ذلك اليوم . وكانت الارض متشققة تلهث من العطش ، وهنا وهناك قد تساقطت حبات البرتقال الذابلة التي لا تجد في الارض ماء ولا حضنا حنونا ولا غذاء ، فتتهاوى تحت ندى الصباح وهي تشهق بالبكاء . وماذا بقي للفلاحين من عمل في مندلي ؟ الاشجار كلها قد يبست وذبلت غصونها وأوراقها ، ولم يعد هناك من يدفع أجرة للفلاح ، لان اكثر العائلات قد رحلت حزينة معذبة . اسرة بعد أسرة تركت مندلي لان الماء قد انقطع ولم يعد يجري . كان نهر السيبة قد جفّ ولم يعد يسقي تلك البساتين الروية الخضراء التي كانت ترقد في أحضان التلال . منذ الازل كان نهر السيبة يروي مندلي . وتعاقبت مئات الاجيال في هذه المدينة الطيبة وهي تشرب من السيبة وتسقي حقولها ومراعيها . وكان الاطفال يولدون وما يكادون يبلغون السادسة من العمر حتى يتعلموا السباحة في النهر الحنون . والآن لم تعد امرأة في مندلي تجرؤ على الولادة في المدينة اليابسة الميتة . كلهم يرحلون ، كلهم يرحلون ، والنهر نفسه قد رحل .

وفي ذلك الصباح لاحت المدينة مهجورة لا يمشي في شوارعها الضيقة أحد . وخرج أسعد وعمر يحملان كتبهما المدرسية قاصدين بناية المدرسة التي تقع على بعد كيلومترين عبر البساتين الظمأى .

قال عمر الذي يبلغ تسع سنوات من العمر :

ـ الى متى نبقى نذهب الى المدرسة وقد هجرها التلاميذ كلهم ؟

ـ يا عمر ، يا عمر ، أما قلت لك ان حضور الدروس واجب وطني ؟ اننا يجب أن نتعلم لكي ندافع عن مدينتنا التي قتلتها ايران .

وانحنى أسعد والتقط بيده برتقالة عجفاء زاهية اللون ، ولكنها سقطت عن غصنها الذي لم يعد قادرا على تغذيتها . ورفعها الى مستوى عينيه وهتف وهو يكاد يبكي :

ـ برتقالة مقتولة ذبحها العطش . لماذا تأتي ايران وتأخذ منا نهرنا ؟ هل أسأنا اليها في شيء ؟

وأخذ ينشج . وتذكر العم محمود ، الفلاح الذي يسكن الى جوار بيتهم ، وكان يخرج كل يوم الى بعقوبا بعربته « البلشقة » ويرجع وقد عبأها أواني مليئة بالماء وراح يسقي شجرات البرتقال والرمان وهو يبكي ويهتف :

ـ لا أترك أشجاري تموت ولو قتلني التعب . يوميا أرحل سبعين كيلومترا لآتي بالماء . عيشي يا شجراتي واشربي ولو فتحت شراييني لأسقيك من دمي.

ويحزن أسعد ويهتف :

ـ حرام عليك يا عمي محمود ! ان المسافة بعيدة والماء الذي تأتي به لا يكفي .

ويقول الشيخ من خلال دموعه :

ـ سمعت ان الحكومة الايرانية قد ندمت وعدبها ضميرها على تحويل مجرى النهر ، ولذلك ستهدم السد الشرير وتعيد الماء الى نهرنا .

ويهزّ أسعد ، الذي يبلغ عمره خمسة عشر عاما ، راسه ويقول :

ـ يا عماه لا تحلم ! لقد حولوا مجرى النهر ولن يعيدوه .

ـ أموت اذن في مندلي يا ولدي . أسقيها حتى أموت ولا يبقى في عروقي دم . وادفنوني تحت شجرة الرمان الكبيرة هذه .

سار أسعد وعمر صامتين فترة ثم عاد الصغير يقول :

ـ أسعد ، يجب أن ننقطع عن حضور الدروس ونرحل مع أمي الى بغداد . ألا ترى الصفوف خاوية الا من طلبة قليلين حزانى ولا يفهمون ما يقول المدرس ؟

ـ يا عمر ، يا حبيبي ، ان أبي في بغداد لم يجد عملا حتى الآن ، ونحن لا نملك الا بيتنا البالي هذا .

ـ ولماذا لا نبيع بيتنا ؟ ألا ترى انه لم يعد نافعا لنا ؟

وتنهد أسعد :

ـ أيها الصغير العزيز ، ليس من أحد يشتري بيتا بلا ماء . أن مندلي كلها لا تصلح الآن للبيع ، لانه ما من أحد يدفع فيها دينارا . مدينة بلا ماء يا عمر ، مدينة بلا ماء .

وتخطى الغلامان سياجا واطئا يفصل بين بستانين . وسقطت ثلاث رمانات جافة . وكانت خطى الولدين تقع على أوراق كثيرة صفراء يابسة وتحدث خشخشة رتيبة . ولاح الحزن على الصغير عمر وسكت.

بعد ذلك لاح بناء المدرسة الفقيرة التي كانت تدرّس تلاميذ مندلي طيلة عشرين عاما . وكان الفرّاش عم مصطفى يجلس على دكة مفروشة بحصير ووجهه ذابل ، وهتف بالغلامين :

ـ أسعد وعمر ، أنتما متأخران اليوم ، وسيغضب المدرّس عليكما .

قال أسعد وهو يتنهد :

ـ سمعنا امس ان المدرسة ستقفل ، واظن درسنا هذا آخر درس فيها ، ومع ذلك حضرنا لان علينا أن نتعلم وننقذ نهر السيبة ومندلي .

ودخل الغلامان الى أول غرفة على اليمين ، فأبصرا الاستاذ رفعت بقامته الطويلة وسمعاه يقول :

ـ المفعول به منصوب هنا .

ثم حين رآهما :

ـ حسنا تفعل يا عمر اذ تحضر الدرس معنا ، لان صفك قد أغلق اليوم بسبب رحيل الطلاب . تعال يا اسعد واجلس هنا ... ولكن ماذا ؟ ان عينيك دامعتان .

ـ لا شيء يا أستاذ ، انه ندى الصباح .

وجلس الغلامان ، وأخرج أسعد كتاب قواعد النحو ودفترا أحمر اللون وراح يحاول أن يصغي الى ما يدور في الصف .

وانحنى رفعت على كراسة أسعد وسأله : « هل حللت التمارين ؟ » .

خجل أسعد وأطرق دون أن يرد . يا الهي ! هل بقي لنا جلد وعقل لنحلّ التمارين ؟ ان أمي عطشى لان السقاء الذي يحمل الينا ماء الشرب من بعقوبا مريض وقد انقطع عن المجيء . وهذا الصباح كان هناك كوب واحد من الماء وقد تقاسمناه نحن الثلاثة . خرجت من البيت وأنا أسمع نشيج أمي ، فلا الماء يأتينا ولا أخبار ابي تصلنا . ومن أحد الاصدقاء القادمين من بغداد علمنا ان أبي لم يجد عملا لكي يشير علينا بالرحيل ولم يعد في وسعنا أن نصبر .

لا ، لم يرد أسعد ، وتزاحمت العبرات على أهدابه السوداء . وسقطت عينه على الجدار المقابل وعليه خريطة بالية للعراق . ان العراق هو بلاد ما بين النهرين وهو يدفق بالماء الغزير ، ومن المحزن ان نهر السيبة هو وحده الذي ينبع من ايران ، ولولا ذلك لما حوّله أحد . وقال أسعد لنفسه :

ـ وحكومة ايران أليست مسلمة لتقطع الماء عن مندلي المسلمة ؟ وأية عدالة هي هذه ؟

ـ أسعد ! هل أنت معنا ؟ أتدري ما يدور في الصف ؟

ـ نعم ، يبنى الفعل للمجهول ويتحول المفعول به الى نائب فاعل .

وراح اسعد يبكي ، ووجم التلاميذ وغصّ المعلم بريقه .

ـ أكمل يا أسعد ، صحيح يا أسعد ، وماذا بعد ؟

ـ اريد ان أفهم يا أستاذ : هل النهر ملك لايران ؟ انا أقول : لا . النهر ملك الله رب العالمين ، هو أجراه وهو الذي حفر واديه . ونهر السيبة كان يجري في مندلي منذ أقدم العصور ، فبأي حق ...

وصعق المدرّس واستولى الخوف عليه وابتلع ريقه عدة مرات وقال :

ـ يا أسعد ، لا شغل لنا في موضوع النهر لانه موضوع سياسي . ونحن هنا لدراسة النحو .

وقال تلميذ طويل القامة من آخر الصف بلهجة ساخرة لا تخلو من الحزن :

ـ الحكومة تمنع الكلام في هذا الموضوع ، وتعاقب من يفعل ذلك .

وصرخ أسعد :

ـ الحكومة تمنع ، الحكومة تمنع ! دعونا نقول اننا عطاش يا ناس . دعوني أخبركم انني تركت أمي تبكي لاننا عطاش .

وامتلأ وجه المدرس بكآبة مفضوحة . وخاف ، وحاول الا يظهر عليه ذلك ، لان نوري السعيد يصادر حتى الكآبة ، وكل الناس يعلمون ذلك . وراح أسعد ينشج وليس من عادته البكاء ، لانه يعتقد بما يقوله العوام من ان الرجل الحق يجب ألا يبكي ، والبكاء والنواح مخلوقان للفتيات . وعاد الاستاذ رفعت الى موضوع المفعول به ونائب الفاعل ، وراح يشرح للطلاب مستعينا بالامثلة . وجرّب أسعد بصعوبة أن يصغي ويستوعب .

البرتقالة كانت مكتنزة ثم امتصها الذبول قبل ان تكون ذات حلاوة . والبرتقال يموت ، يموت في كل مكان . المفعول به لا ينصب الا بفعل متعدّ . يا الهي ، ما أطول أنف الاستاذ رفعت . عيّن نائب الفاعل في الجملة الآتية : نهر السيبة جفّ جفافا تاما وماتت الاسماك فيه . أمي ، سيأتي السقّاء بالماء ، لا تعطشي يا أمي . لا تضرب الفقراء . الفقراء مفعول فيه يا ولد . أهو مفعول فيه أم مفعول به ؟ البرتقال والرمان يتساقط.

نهر السيبة هل هو فاس ؟ نهر السيبة كان يجب أن ينبع من العراق لا من ايران .

والتفت رفعت الى أسعد وراى عينيه راغبين . دامعتين . وودّ لو ركع الى جانبه واحتضنه . ولكن كيف يفعل ؟ لقد اعملت سلطة نوري السعيد سبعين من سكان مندلي لمجرد انهم احتجوا على ايران لقطعها النهر . ويعلم رفعت جيدا ان شاه ايران دفع رشوة كبيرة الى نوري السعيد لكي يسكت عن عملية قتل المدينة الرائعه الخضراء . وبالارهاب أسكت رئيس الوزراء كل احتجاج . ولم يعد أحد يجرؤ على الاحتجاج .

هل لنا من انسان نشكو اليه ؟ وبمن نلوذ ؟ لقد ذبحوا مندلي مسقط رؤوسنا وعروس البساتين وقطعوا نهرنا بلا رحمة . اقرأ يا ولدي . لا يقع نائب الفاعل الا بعد فعل متعدّ . عم محمود . لا تسق الشجرة واسقنا لاننا عطاش . أين نائب الفاعل ؟

لم تكن في الصف حماسة للمفعول به . ونام نائب الفاعل وأغفى على لوحة الكتابة . وراح السقاء المريض يسعل سعالا شديدا . عين نائب الفاعل هنا . يا أهالي مندلي اصمدوا ولا ترحلوا . نائب الفاعل مرفوع . أمي الحبيبة لا تبكي سيأتي السقاء وسيأتي أبي وقد وجد عملا . والمفعول به ونهر السيبة سيتعانقان ، وينسكب الماء غزيرا على ... جملة الفعل المبنيّ للمعلوم . هل حصل نزاع بين ايران والمفعول به ؟ ما أقساك أيها المفعول المطلق عندما تحرمنا من ماء نهرنا ؟ سيبة ، سيبة ، دعوني أموت في ماء السيبة ولكن نائب الفاعل مجرم . لقد خطف النهر ، ومن وراء بساتين الرمان والبرتقال الميتة يضحك نوري السعيد . آه ، أريد كتفا أسند اليه رأسي وأبكي . أيها الفعل المبني للمجهول : أنت الذي حوّل نهر السيبة ! لقد أقاموا سدا على مجرى كل الافعال المبنية للمعلوم ... واختنق المفعول به ورحل عن مندلي .

ـ يا أستاذ رفعت ، انا عطشان ، اسمح لي أن أذهب الى عم مصطفى فان عنده سراحية ماء .

ـ لا ، لا يا عمر . لا تغادر الصف فان عندنا هنا جرة ماء . خذ ، هذا كوب تشرب به .

ونهض الصغير عمر ، وسكب الماء من الجرة فاذا هو مختلط بالطين . وحار كيف يشرب . وأخيرا أغمض عينيه وكرع الماء دفعة واحدة . كانت حبات الطين تصوّت تحت أسنانه .

وعند هذا لم يعد أسعد يصغي الى ما يدور في الصف مطلقا . فقد خطر له حلم رائع جنح خياله ورفعه الى أوج الحماسة . كان يحتاج الى أربعة أو خمسة من زملائه التلاميذ ، وكلهم غاضبون ورافضون وموتورون ، ويقودهم هو في النصف الثاني من الليلة عبر الحدود الايرانية . وهو يعرف الطريق بين التلال جيدا ، وموضع تحويل نهر السيبة قريب من الحدود . ولسوف ينزل أسعد في النهر وهو يتقن السباحة . ولسوف يفكّ السلسلة فينفتح الباب الحديد ويعود الماء يجري في نهر السيبة .

هكذا راح أسعد يحلم بعينين مفتوحتين . وانبجست فطرة فرح في تلك العينين . ونام المفعول به هانئا على خديه . آه لو تحولت كل المفاعيل الخمسة الى جرة ماء يسقي بها أمه المسكينة العطشى . ونهر السيبة . ترى أين ذهب ماؤه ؟ وعبر أية حقول فارسية خضراء أصبح يجري ؟ وهل تدري يا نهرنا اننا نموت من العطش . وان أشجارنا قد يبست وبرتقالنا لم يعد له عصير ؟

ووضع أسعد كفه اليسرى على رأسه وعاد الى حلمه الاول . هذه الليلة بعد الثانية عشرة سيأخذ رفاقه ويعبرون الحدود الايرانية . ولكن انّى له أن يعرف مكان السد الذي حول نهر السيبة وقطعه عن مندلي ؟ وأحس ان جبينه يشتعل بالحمى . ومسه باصابعه فأحس انه يكويه . تراه محموما ؟ ان يديه ترتعشان للفكرة الرائعة . آه يا امي سيكون ولدك منقذا لمندلي هذه الليلة . وسترتوين . سترتوين يا امي بالماء الصافي !

قال الاستاذ رفعت :

ـ أسعد . اعرب هذه الجملة : « المروج قطع عنها السماد » .

ورفع أسعد رأسه وراح يعرب :

ـ المروج مبتدأ مرفوع رفع عنه الماء ، وقطع فعل ماض مبني للمجهول وهو راغم وحزين ومتشقق . وعنها جار ومجرور بالسلاسل والسد الحديدي . ما العبارة ؟ قطع عنها الماء . الماء نائب فاعل معذب يريد أن يركض ولا يستطيع .

ولاح الخوف على وجه المدرس وهتف برفق :

ـ يا أسعد ، سألتك أن تعرب (المروج قطع عنها السماد) ولا يصح أن تغيّر العبارة عند اعرابها .

ـ أعذرني يا أستاذ ، اني تحولت الى شظايا فعل مبني للمجهول . ولو كان مبنيا للمعلوم لجرى الماء معطرا في نهر السيبة الميت . ولكن الافعال كلها مقصوصة الاجنحة لا تستطيع الطيران . وأبي يحمل على كتفيه مائة نائب فاعل ثقيلة جدا وهي تعرقل بحثه عن عمل نعيش منه في بغداد . ونحن ونهر السيبة والعم مصطفى كلنا عطاش . وأمي تسلق في القدر مفعولا به لنتغدى هذا اليوم ، وتسلقه بماء النار لاننا لا نملك ماء .

وهتف الاستاذ رفعت :

ـ ولدي أسعد ، سوف تغلق المدرسة اليوم . وستعود كلّ المفعولات بها الى كتاب القواعد ولا يعود أحد يمضغها .

وفي هذه اللحظة دق جرس المدرسة ايذانا بانتهاء الدرس الاول ، فنهض التلاميذ متثاقلين ، ومضغ عمر

بقايا الطين الذي شربه مع كوب الماء . واقترب اسعد من التلميذ المجاور له وهمس :

ـ أحمد ، أريد أن أتحدث اليك في موضوع مهم . ابق في الصف معي .

واضطر أسعد الى أن يصرف أخاه عمر ، ولكنه قال له :

ـ انظر يا عزيزي ، هل تعرف غسان ومرتضى وابراهيم ؟

ـ غسان هو التلميذ الطويل ؟

ـ أجل وهو هناك ، انظر ! ومعه ابراهيم . اخبرهما أن يأتيا الى هنا حالا ، وابحث عن مرتضى ودعه يحضر .

وانصرف عمر ، وبعد لحظات وصل غسان وابراهيم .

قال الاول :

ـ هل هو اجتماع صغير يا أسعد ؟ أنا وابراهيم نريد الذهاب الى بعقوبا لاحضار برميل كبير من الماء ، فالمدينة عطشى والسيبة أصبح يابسا تماما .

ـ عندي لكما عمل أهم من احضار الماء ، لان هناك في الاماكن المنخفضة من السيبة بقع مياه يمكن الشرب منها . وأنا أريد أن نحل مشكلة الماء من أساسها .

وفي هذه اللحظة وصل مرتضى وهو شاب عمره خمسة عشر عاما ، وعندما رأى زملاءه لم يتكلم ، وجلس وعلى وجهه مسحة واضحة من الجد ، وكأنه رجل مكتمل يحمل أعباء الحياة .

وبدأ أسعد الحديث وشرح لهم خطته بلا تطويل :

ـ يا أصدقائي ! نحن فتيان مندلي وشبابها ، وعلينا يقع عبء انقاذها من الجفاف والموت ، وانا سأذهب الليلة عبر حدود ايران ، وأسبح وأكسر السد الذي حولوا به النهر عن مدينتنا .

وهتف ابراهيم :

ـ هذا عمل خطير يا أسعد ، وقد يقتلك حرس الحدود !

ـ اني أعرف كيف أعبر الحدود دون أن يلاحظوني ، وقد فعلت ذلك مرارا لمجرد المتعة . ومهما يكن ، سأذهب الليلة لاعيد الماء الى مندلي ، وأنا أحب أن تصحبوني الى هناك وأنتم شبان المدينة وسواعدها ، فهل تأتون ؟

وسكت ونظر في وجوههم واحدا واحدا ، فاندفع مرتضى وقال بهدوء :

ـ أنا أول من يذهب معك ، وسأحتمل كل النتائج الممكنة . والمهم أن تعلم السلطة الايرانية اننا عملنا شيئا ولم نخضع للجور والطغيان ساكتين .

ودبت الحماسة في صدر غسان وهتف :

ـ أنا أيضا معكما ، وعندي بندقية صيد أستطيع أن أحملها لاستعملها في حالة تعرضنا الى خطر عند نقطة الحدود .

ولاح ان غسان انفعل أيضا لانه قال في حسرة وحزن :

ـ القضية أكبر منا يا جماعة . وأنا مستعد لمصاحبتكم ، ولكن قلبي يحدثني بأن كارثة تنتظرنا ، لان عبور الحدود ليس أمرا سهلا ، وقد مات ما يقرب من عشرة أشخاص ببنادق الحرس الايراني لمجرد انهم تخطوا الحدود .

وهتف أحمد :

ـ لا بد لنا من أن نعترف بأن رغبة الحرس الايراني في معاقبة من يجتاز الحدود بلا رخصة أمر طبيعي ، وذلك من حقهم . والايرانيون مسلمون مثلنا ، وهم يحبوننا ونحن نحبهم ، هذا مع اننا غاضبون أشد الغضب على حكومتهم التي سرقت نهرنا وأعطشت المدينة وقتلت بساتينها .

وصاح أسعد :

ـ اذا كانوا مسلمين حقا ، فلماذا يقتلون مدينتنا الاسلامية ؟

ـ يا أسعد ، يا أسعد ، ليس شعب ايران هو الذي حول مجرى السيبة ، وانما فعلت ذلك الحكومة . والشعب هناك يكره الحكومة وهو ثائر عليها .

ـ أنا لا أكره الشعب الايراني ، وانما أحبه كما أحب كل الشعوب المسلمة . ويلوح انك على صواب ، لان تحويل نهرنا تم بأمر حكومة الشاه ، وقد قرأت منذ يومين مقالا مترجما عن اللغة الايرانية في جريدة « النهضة » التي تصدر في بعقوبا فيه ان الشعب الايراني ساخط على الشاه غاضب لتحويل نهر السيبة عن مندلي .

وهتف غسان :

ـ هذا غريب . كيف جرؤت « النهضة » على كتابة هذا دون أن تغلقها سلطة نوري السعيد ؟

ـ لقد أوقفتها وهي الآن لا تصدر . ونوري السعيد قد تسلم عشرة ملايين دينار من شاه ايران ثمنا لسكوته عن تحويل السيبة وقتل مدينتنا .

وهمس مرتضى :

ـ يا جماعة لا ترفعوا أصواتكم . وما دمنا متفقين على القيام بالمغامرة فلنضع خطة كاملة تضمن نجاحنا .

وأسرع أسعد يقول :

ـ أول ما يجب أن نتفق عليه هو توقيت مغامرتنا . وأنا أقترح أن نتحرك في نصف الليل تماما ، لان حرس الحدود لا يتوقعون أن يعبر اذ ذاك أي أحد .

وبادر الجميع يوافقون ، الا ابراهيم الذي لاح مرتبكا ، وقال أخيرا :

ـ أيها الاخوة ، أنا أحب أن أصحبكم ، ولكن اسمحوا لي أن آخذ موافقة أبي .

وقال مرتضى بهدوئه الرائع :

ـ تأخذ موافقة أبيك ؟ لا يا ابراهيم . انك بذلك تفشي سرنا ، واذا ما عرف آباؤنا خطتنا ، فسيمنعوننا بالقوة من الذهاب .

وقال أسعد :

ـ ابراهيم ! هذه مسألة وطنيـــة ، ويمكنك أن تتصرف بلا أذن مـــن أبيك . ألا تحب أن تنقذ مدينـة مسلمة مظلومة ؟

وقال الآخرون أشياء مماثلة لهذا ، ووافق ابراهيم على الذهاب ، وان كان لم يتحمس . وكانت على جبينه سحابة حزن . هكذا كان ابراهيم دائما ، وتلاحظ عـلى عينيه شبه ضبابة من دمع تضفي جمـالا كئيبا عـلى وجهه الوسيم . لقد ترك أباه في البستـان يجمع أي رمان يجده لم يبلغ من الجفاف مبلغا يجعله غير قـابل للاكـل .

وقال ابراهيم لابيه بلهجته الحالمة :

ـ يا أبي ، استرح ولا تتعب نفسك في جمع رمان جفّ من العطش قبل أن يصبح حلوا .

ـ ابراهيم ، ابني ، اذهب الى المدرسة وستجد رمانا حلوا عندما تعود .

وكاد الولد يبكي . ان والده شيخ فان يتوكأ عـلى عصا ، ويجب أن يقبع في البيت ويرتاح . ثم ان هـذا الرمان لا نفع فيه .

وخلال هذا اندفع الصبي الصغير عمر ودخل الغرفة ركضا وهو يصيح :

ـ جاءت الشرطة ، الشرطة يا أسعد .

ونهض الشبان اليافعون فزعـين ، وأطلوا من النافذة فرأوا تلميذا لا يزيد عمره على ثلاث عشرة سنة وقد قبض عليه ثلاثة من رجال الشرطة وأحدهم يضربه على رأسه والولد يبكي ويصيح . وكان يقف عـلى باب المدرسة مديرها وبعض المدرسين ، وقال أحد رجـال الشرطة :

ـ يا مجرم ، أليس عندكم ماء في البئر ؟ لماذا لا تشربون من البئر ؟

وصاح الولد وهو ينشج ببكاء شديد :

ـ ان ماء البئر شديـد المرارة ، وهو لا يصلح الا لسقي شجرة التوت .

ـ يا حقير ، طـويل لسانك وما زلت صغيرا ، لماذا تشتم شاه ايران ؟

وقال الصبي ببراءة وهو يواصل البكاء :

ـ لانه أخذ ماء السبيبة وتركنا عطاشا بلا ماء .

وضربه الشرطي بمقبض بندقيته في بطنه فسقط الولد على الارض يتخبط ويدفر برجليه دفرا عنيفا .

وأغلق ابراهيم النافذة وجلس . وعاد الاربعـة الآخرون وفي عيونهم شيء يغلي ، وهتف مرتضى :

ـ ماذا نستطيع أن نفعل أمـام شرطة نـوري السعيـد ؟

قال له أسعد :

ـ ليس كل الشرطة قساة ومجرمين . ان الشرطة أفراد من الشعب مثلنا . وهم مجرد مستخدمون لـدى حكومة نوري السعيد . وكثيرون منهم غاضبون مثلنا ولا حيلة لهم .

واتفقوا على الخطة فورا . تواعدوا أن يلتقوا فـي نصف الليل عند أشجار الرمان القائمة في آخر مندلي . وعندما انتهوا قال ابراهيم :

ـ سأذهب معكم وسأكون أنا الذي ينزل في المـاء وبكسر السلسلة .

وبدأ ينتحب ويبكي وقال :

ـ ان الولد قد مات .. اسمعوا الصراخ .

وكان يجيء من خارج النافذة عويل وصراخ . وكان صوت الشرطي يتعالى :

ـ مجرمون ، سفلة ، منحطون . سنغلق هـذه المدرسة اللعينة !

* * *

انتصف الليل . وكانت مندلي اليابسة الحزينـة مطفأة الاضواء . ونسمة الجمبل يمرّ على الاشجـار الجافة ويحدث صوتا . وكان في السماء قمر ذابل في النصف الثـاني من السهر . وخرج ابراهيم من بيت أبيه . وأقفل الباب بهدوء دون أن يحدث صوتا . وكان يسير مطرقا مغرقا في الحزن والتفكير . كانت لا تفتأ تعاوده مشاهد موت الـولد الصغير فيغصّ . وتذكر كيف وقف ساعة الى جانب الصبي المقتول وكانت أمـه تعول عويلا يمزق القلوب وتنادي :

ـ أريد ولدي . أعطوني ولدي . أعطوني وليدي .

وحضر الطبيب ، وانحنى على الارض يفحص الولد المقتول . وراح يقلبه ليعرف سبب المـوت . واكتشف دماء غزيرة تسيل من مؤخرة الصبي . ووقف حزينـا وقـال :

ـ نزيف في الامعاء ، نزيف حاد . بماذا ضربوه ؟

ـ بمؤخرة البندقية وكانت ضربة شديدة فسقط الولد حالا .

وصرخت الام وهي تبكي بكاء شديدا :

ـ لماذا يموت ولدي بنزيف في الامعـاء ؟ ولـماذا لا يموت هذا الشرطي بالنزيف ؟ يا رباه ! أعطوني ابني اريد ابني !

وقال رجل شيخ واقف مع الجمهور :

ـ يا أختي لا تأسفي ! ان الله عادل وهو ينتقم من المجرمين . ولا بد أن يموت هذا الشرطي ميتة فظيعة .

وصل ابراهيم في سيره حافـة النهر اليابس .

ـ التتمة على الصفحة ٦٦ ـ

قناديل لمندلي المقتولة

تتمة المنشور على الصفحة ـ ١٤ ـ

وشعر برعشة برد فلفّ صدر المعطف حول رقبته واسرع في مشيه . ولاحت شجرات الرمان في آخر البلدة ورأى تحتها شبحين . وعندما اقترب تبين أسعد وأحمد . وأحسّ برعشة في فقرات ظهره من الخوف . كان يحس ان المغامرة رهيبة وان الليل جاسوس يتنصت وسيطارد . وشعر انه يود لو استطاع الرجوع الى البيت لينام قرب أبيه الشيخ الذي لا يستطيع أن ينهض الا اذا توكأ على كتفه . وهتف أسعد :

ـ هكذا يا ابراهيم ، هكذا يكون التصميم والعزم . بعد ساعة واحدة سيعود النهر يجري في هذه الارض العطشى .

وهنا لاح شبح يتقدم نحوهم في الظلام ، وسرعان ما تبينوا فيه غسان ، وكان يحمل بندقيته . وقال انه اخرجها من غرفة أبيه سرا في الساعة الثامنة وأخفاها قرب باب الدار .

لم يبق الا مرتضى ، وسرعان ما أقبل مسرعا يسير في حيوية ونشاط . وهتف ابراهيم :

ـ الآن اكتمل عددنا ، فلنبدأ السير . وسنفتح باب السد بسرعة ونعود قبل الواحدة ، ويكون الماء قد اندفع في وادي السيبة يروي مدينتنا العطشى .

وسار الفتيان الخمسة الى جانب أشجار الرمان حذر أن يراهم الحرس الايراني . وعندما بلغوا الحدود وجدوا أسلاكا شائكة ممدودة تمنع العبور ، وهمس أسعد :

ـ انعطفوا الى اليمين . هناك كسر في الاسلاك نستطيع العبور منه .

كان الليل نصف مظلم لوجود ضوء القمر . وكان السياج كثيفا أمامهم على الارض . ولاحظوا انهم يستطيعون المرور زحفا على البطون . فانبطحوا على الارض وعبروا جميعهم دون أن يحدثوا جلبة . وعندما صاروا في الجهة الثانية من الاسلاك ، نهضوا واقفين وأنصتوا جيدا ، فتأكدوا ان الحرس لم يسمعوهم . وساروا في هدوء وحذر ، وعلى بعد خمسين خطوة رأوا نهر السيبة الجاري . كان هناك مجريان للنهر ، أحدهما قد جفّ وهو الذي يسقي مندلي . والثاني هو السيبة المدلّ ، نهر ايران . وفي نهاية الوادي الجاف باب من حديد مغلق يمنع الماء عن مندلي ويرسله كله الى الارض الايرانية . واقتربوا من المكان ووقفوا .

كان الاحساس الاول لديهم هو السرور بالوصول الى مكان الجريمة . وماذا يريدون بعد ؟ ها هو الحاجز وفي وسعهم أن يفتحوه بأيديهم فيجري الماء في نهر السيبة . وقال أحمد :

ـ يا اخوان . ما فائدة فتح الماء على وادي مندلي ؟ ان حرس الحدود سينتبهون في الصباح ويعيدون قطع الماء عنا .

وهتف مرتضى :

ـ كل ما يهمنا أن نشعر حكومة ايران بأننا لسنا اذلاء ولا جبناء بحيث نسكت على تحويل النهر ونرحل عن مندلي بلا احتجاج . أريد أن يحسّوا بأننا غاضبون واننا فعلنا شيئا .

وبدأ ابراهيم يخلع ملابسه وبقي بالسروال فقط وقال :

ـ علينا ألا نطيل الحديث ولنبدأ بالعمل . سأنزل في هذا الحوض وأحاول أن أفك السلسلة التي تفتح هذا الباب الحديد .

قال هذا وقفز في الماء البارد الخريفيّ . وهم يعلمون كلهم ان ابراهيم أمهر سباح في مندلي ، فقد تعلم السباحة ومارسها منذ طفولته . وهتف مرتضى :

ـ ابراهيم . السلسلة على يسارك ، اسحبها لينفتح الباب .

ولاح لهم ان القدر كان معهم ، فان ابراهيم سحب السلسلة ، فانفتح الباب الكبير ، واندفع الماء الى وادي مندلي . وظهر لهم فيما بعد ان الحراس لم يقفلوا السلسلة بعد ، دون أن يخطر لهم ان فتيان مندلي سيجازفون بحياتهم ويفتحون الباب . ماذا بقي ؟ ولماذا تأخر ابراهيم تحت الماء ؟

كانت قدما ابراهيم بارزتين فوق الماء وراسه وكتفاه تحت السطح . ووقف الرفقاء الاربعة ينتظرون . ولم يرفع ابراهيم رأسه ، وبقيت قدماه فوق سطح الماء . وقال مرتضى بصوت قلق :

ـ لماذا لا يصعد ؟ ان الماء قد تدفق في نهرنا . ابراهيم ! ابراهيم ! اصعد الينا ، بارك الله فيك !

ولم يرد ابراهيم ، وبقي رأسه تحت الماء . أخيرا قفز مرتضى الى الحوض وراح يسحب ابراهيم ، فاذا رأسه لا ينسحب . وعاود مرتضى جرّه بلا جدوى . والتفّ حوله ومد يده ليرى سبب بقائه تحت الماء فاذا شعره قد ارتبط بالسلسلة ارتباطا يصعب فكه . وصرخ مرتضى :

ـ لقد غرق ابراهيم . يا الهي . غرق ومات .

أخذ الاولاد يبكون بكاء صامتا وهتف أسعد :

ـ يا ويلاه ، يا ويلاه . ماذا سنقول لابيه الشيخ العجوز الذي ليس له سواه ؟

وخلال ذلك كان مرتضى مستمرا في محاولة فك الارتباط بين شعر الفريق والسلسلة ، ونجح أخيرا فرفع رأس ابراهيم على راحة كفّه فوق الماء ودفعه صوب الشاطىء . وامتدت أيدي الشبان الثلاثة ورفعوه

الى الجرف وجسمه النحيل يفطر ماء . ووضعوه على الضفة ، وكان وجهه مطمئنا لا خوف فيه . ولاح كأنه قد صادق الموت ووجد السعادة لديه . وصعد مرتضى الى الضفة وهمس وهو يبكى :

ـ يا اخوان ، يا اخوان ، كيف سنخبر أباه الذي يعبده ؟

وقال أحمد :

ـ له ثلاثة اخوة وأخت واحدة ، ولكن الشيخ يحب ابراهيم أشد الحب .

واستمروا يبكون ويتأوهون ، وصاح بهم مرتضى :

ـ تحركوا فورا ، ان الموقف عصيب . تعالوا لنحمل الجثة بيننا ونحاول أن نعبر بها الاسلاك الشائكة .

وانحنوا وهم يتعذبون ، وحملوا بينهم جثة ابراهيم . وكان الغريق وديعا في موته كما كان وديعا في حياته . كان خفيف الحمل وعلى ثغره ابتسامة غريبة ، ابتسامة فرح وكأنه عانق في الموت صديقا حبيبا .

وعبروا الاسلاك الشائكة في المكان المكسور ، وتنفسوا الصعداء عندما صاروا في أرض عراقية وقد نجوا من حرس الحدود . وكان السيبة الى يسارهم واديا تندفع فيه مياه غزيرة . وهتف مرتضى :

ـ رحمة الله عليك يا حبيبنا ابراهيم . لقد رجعت محمولا على الايدي . لكنك لم تمت الا بعد أن أجريت الماء في أرضك اليابسة .

وزاد بكاء الفتيان بعد أن نجوا من الحدود . لقد عادوا بالماء ولكنهم رجعوا يحملون جثة . وستشرب مندلي من يد الشهيد الحبيب الذي وهب حياته لمدينته . ولكن الاولاد عذبوا أنفسهم بفكرة واحدة . لقد ضحى ابراهيم بنفسه من أجل ليلة واحدة يندفع فيها الماء الى وادي السيبة . مرة واحدة ترتوي مندلي ثم يغلق الحرس الايراني الباب الحديد وينقطع الماء على عروس المدن مندلي الحلوة .

ماذا بقي ؟ المشهد الدراماتيكي ، مشهد اللقاء بين ابراهيم وأبيه الشيخ وهو مشهد يعكس الازل ، أزل في عيني الاب الواله المفجوع ، وأزل على بؤبؤ الفتى الميت .

ويقف الازل وينظر ، ويبقى الاستشهاد والتضحية والفداء ، وتبقى مندلي يابسة حتى يأتي مستقبل غير بعيد ويعيد اليها الماء والحياة والخضرة . وينتصر ابراهيم ، ينتصر ابراهيم أبدا . أجرى الماء في مندلي ورواها ومات . وهل مات حقا ؟ لا لم يمت ابراهيم ولا ماتت مندلي . ان الحياة تحب ابراهيم لانه أحيا مندلي وأعطاها الماء والنماء والبركات .

وساروا في ظلام الليل يحملون أول شهيد على ارض النضال . النضال ضد نوري السعيد . النضال ضد حاكم ايران الذي لا احساس له ، النضال من أجل الحياة .

شركة خياط للكتب والنشر (ش م ل)

٩٢ ـ ٩٤ شارع بلس ـ ص.ب ٦٠٩١
بيروت ـ لبنان ـ تلفون ٢٤٤٩٩٨

يسرها ان تقدم

الموسوعتين الكبيرتين

موسوعة الشعر العربي

الشعر العربي في شتى عصوره ومناطقه منذ العهد الجاهلي حتى عهد النهضة العربية الحديثة .

٢١٥ شاعرا من العصر الجاهلي
٩٠ شاعرا من العصر المخضرم
٢٤٥ شاعرا من العصر الاموي
٥٢٤ شاعرا من العصر العباسي
٢٧٠ شاعرا من العصر الاندلسي
٤٣٠ شاعرا من عصور الانحطاط
٢٩٢ شاعرا من عصر النهضة العربية
شعراء عديدون من العصر الحديث

دراسات قيمة عن كل شاعر ، حياته ، بيئته ، شعره ، عرض مشوق لافكار الشاعر واغراضه ومقاصده .

في ٣٢ مجلدا ضخما تضم الشعر العربي قديمه وحديثه ، كل مجلد يقع في ٦٥٠ صفحة من القطع المتوسط .

ديوان الشعر العربي كله بين يديك في مجموعة واحدة تصدر أجزاؤها تباعا .

●

موسوعة الفن العربي

... الفن والتزيين وهندسة الماضي المعمارية في ٢٠٠ لوحة أكثر من نصفها بالالوان ، تضمها ثلاثة مجلدات كبيرة ، أصدرتها مكتبة خياط للكتب والنشر في بيروت وباريس ، وهي أجمل هدية عن الفن الاسلامي ، من تصوير وتصميم « بريس دافين » الذي كان قد درس طوال أعوام مظاهر الفن العربي ، ليخرج هذه الموسوعة عن أجمل آثار العالم الاسلامي .

تحفة رائعة تزين مكتبة بيتك أو مكتبك ، وتصور ادق ما توصل اليه الرسامون والمزخرفون والنقاشون الاسلاميون والعرب في العصور الماضية .

●

اطلب الموسوعتين من شركة خياط للكتب والنشر ، شارع بلس ببيروت ، او من فرعها في باريس :

Les Editions KHAYAT 25, Rue Berne
75008 PARIS Tél : 293 - 68 - 33